"بلاغة الرغبة في التميز في شعر أبي تمام والبحتري"

إعداد الباحثة
"آيات شعبان جبريل عبد اللطيف"
مدرس مساعد في البلاغة والنقد الأدبي

إشراف
أ.د/ حسن أحمد البنداري

(بلاغة الرغبة في التميز في شعر أبي تمام والبحتري)

تمهيد :

يلجأ الشاعر في نصوصه الشعرية إلى توظيف فن "المبالغة التعويضية" بوصفه أحد فنون الكلام التي تساعده على التعبير عما يدور داخل خلجات نفسه، وللتعويض عن أحاسيسه المكبوتة التي لا يستطيع الإفصاح عنها أو البوح بها، باعتباره أسلوبًا من أساليب الكلام التي تنبع مباشرة من نفس الشاعر وأحاسيسه، (فالمبالغة شعور تعويضي عن أحاسيس مكبوتة داخل نفس الشاعر تظهر من خلال بلوغهما بالمعنى إلى أقصى ما يمكن من وصف الشيء؛ وذلك لغرض بلاغي وآخر انفعالي)، فضلًا عن أنها من الفنون البلاغية التي وعى النقاد مفهومها، وأقسامها، فهي من المحسنات البديعية التي تعزز المعنى في النص الشعري؛ من ثم نجد هذه الظاهرة قد شاعت في أشعار أبي تمام والبحتري شيوعًا لا تخطئه عين الناقد.

كما يسعى المرء إلى التعبير عن تميزه وتفوقه؛ وذلك حين يكون مليئًا بمشاعر وأحاسيس النقص والدونية أمام الآخرين، وهي الأحاسيس التي حين تتكون يسعى الإنسان دون وعيٍ منه نحو التفوق، حيث تتراكم داخل نفسه أحاسيس (التفرد والتميز) عن باقي البشر؛ وذلك يكون كرد فعل أمام إحساسه بالنقص أو كتعويض عن شعوره بالدونية، ومن ثم يتكون عنده ما يسمى (بعقدة الرغبة في التميز) أو (السعي نحو التفوق)؛ لإثبات الذات والإحساس بتفرده وسط الآخرين. وهذه النزعة أو الرغبة قد أطلق عليها "السعي نحو تحقيق الأمان، والبعض سماه السعي نحو الحفاظ على الذات، لكن أيا كان الاسم الذي نعطيه إياها، فإننا سنجد أن جميع البشر ممتلئون بهذا الشعور ألا وهو الصراع لكي يسمو فوق حالة النقص ويصل إلى وضع التفوق، وبهذا يكون قد حوّل الهزيمة إلى نصر، وارتفع من أسفل إلى أعلى"[١].

---

[١] ألفريد أدلر، معنى الحياة، ترجمة عادل نجيب بشري، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٥م، صـ ٢٥٠.

مـن ثـم "تـأتي آليـة التعـويض المتبعـة لتجنـب الألـم الـذي يسـببه الشـعور بالدونيـة، وهـي آليـة سـتقودنا بالضـرورة إلـى مـا يسـمى (بعقـدة التفـوق)، وهـذه العقـدة قـد تـؤدي فـي كثيـر مـن الأحيـان إلـى أن الفـرد المصـاب بالدونيـة سـيتمكن مـن تحقيـق عـدد مـن (النجاحـات) تكـون كفيلـة بتـأمين جـو مزيـف مـن الأمـان قابـل للتلاشـي مـع أول موقـف يوضـع فيـه هـذا الشـخص مـع مصـادر دونيتـه الحقيقيـة، لا سـيما أن مجمـل سـلوكيات آليـات التعـويض تأخـذ طابعًـا عـدوانيًا بحثًـا عـن مـا يسـمى بالسـلطوية الحفيـة، أي الرغبـة بالسـيطرة وقيـادة الآخـرين، أو السـخرية مـنهم، والحـط مـن قـدرهم، ورشـقهم بمجموعـة مـن الـتهم الجـاهزة والصـفات السـلبية، كـل ذلـك كـي يحقـق المصـاب لنفسـه إحساسًـا بالارتقـاء والتفـوق مـن دون أن يبـذل أي جهـد حقيقـي، وكأنـه يقـول فـي مـا بـين السـطور: "انظـروا إلـيّ، أنـا لسـت مـثلهم..."، وهـذا مـا يعـرف فـي علـم الـنفس بتقنيـة الإسـقاط أي إلقـاء الـتهم علـى الآخـرين بهـدف دفعهـا عـن الـذات، ولكـن تجـدر الإشـارة إلـى أن معظـم آليـات التعـويض لـدى الشـخص المصـاب بالشـعور بالدونيـة، ولـدى العصـابي إجمـالا هـي آليـات لا واعية"[٢].

فالشـخص يصـل إلـى حالـة مـن الصـراع الـداخلي؛ نتيجـة شـعوره بالدونيـة وسـط الآخـرين، حيـث يكـون ممتلئًـا بإحسـاس الخـوف والتـوتر، فيلجـأ إلـى وسـيلة تدفعـه إلـى الشـعور المزيـف بالأمـان، كـي يـتمكن مـن تحقيـق أو إثبـات تفوقـه وتميـزه وسـط أقرانـه، حتـى إذا اضـطره الأمـر إلـى الإشـادة بنفسـه فـي بعـض الأحيـان، وكـل هـذا يتحقـق دون وعـي منه.

إن ظـروف نشـأة الفـرد منـذ طفولتـه تكـون سـببًا فـي تـداعي مشـاعر الدونيـة، والمهانـة، مـن ثـم يلجـأ إلـى تعـويض مـن شـأنه أن يسـتر أو يخفـي هـذه المشـاعر السـلبية التـي تسيطر عليه.

[٢] http://www.aram-grp.com/index.php?d=221&id=278، آخر زيارة ٢٠١٧/١٠/١٧م.

بـالنظر إلـى هـذه العوامـل التـي توضـح هـذه العقـدة عنـد أبـي تمـام والبحتـري، نجـد أن هنـاك عوامـل عديـدة كانـت سـببًا فـي وجودهـا ، ومحاولتهمـا التغلـب عليهـا، وتجاوزهـا، ذلـك أن كـلا منهمـا يشـعر بذلـة أو بصـغر نفسـه عنـدما يجـد الآخـرين متقـدمين أومتعـافين مـن عاهـة جسـدية قـد أصـابته، فـإذا بـه يُصـاب بحالـة مـن الصـراع الـداخلي، والاضـطراب النفسـي، سـرعان مـا يبحـث عـن رد فعـل لهـا. فعقـدة الـنقص تتكـون "نتيجـة لوجـود قصـور عضـوي، أو اجتمـاعي، أو اقتصـادي، ممـا يـؤثر علـى حيـاة الشـخص النفسـية، ويشـعره بـالنقص والدونيـة، وعـدم الأمـن وعـدم الكفايـة، ويتبـع ذلـك تعـويض أوعـدوان لتخفيـف أعراض هذا النقص"[٣].

فـأبو تمـام قـد ذُكـر أنـه كـان يعـاني مـن (حُبسـة أو تمتمـة يسـيرة فـي لسـانه)، وهـو "تعطـل فـي وظيفـة الكـلام، وعجـز عـن إخـراج الكـلام أو فهمـه منطوقًـا أو مكتوبًـا؛ نتيجـة أذى أو تلـف يصـيب منطقـة الكـلام المنطـوق أو المكتـوب كمـا ينبغـي، ويـدخل فـي بـاب الكـلام التعبيـر والتواصـل بـالقول والكتابـة والإيمـاءة، واسـتقبال كـل ذلـك"[٤]، لكـن أكـد علمـاء الـنفس أن معظـم حـالات هـذا الاضـطراب لا ترجـع إلـى أسـباب عضـوية فحسـب، وإنمـا ترجـع إلـى أسـباب نفسـية كـذلك، فضـعف الثقـة بـالنفس، وعـدم القـدرة علـى تأكيـد الـذات، والحرمـان، والخـوف الشـديد مـن هـذه الأسـاب التـي يشـعر بهـا الفـرد منـذ طفولتـه، وقـد شـعر بهـا أبـو تمـام بالفعـل، فقـد ذاق الحرمـان بأنواعـه، وذلـك حـين نشـأ فقيـر الأبـوين، ولـم يحـرم مـن المـال فحسـب، فقـد قيـل أن أبـاه كـان خمـارًا، ومـن ثـم حُـرم مـن عاطفتـه وحنانـه، فهـو "مـن هـؤلاء الآبـاء ذوي المـزاج الحـاد الـذين لا يعرفـون الاعتـدال أو التوسـط، فيكون أدنى إلى القسوة والغلظة منه إلى الحنان والرعاية"[٥].

---

[٣] د/حامد عبد السلام زهران، الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب، ط٤، ٢٠٠٥م، صـ ٦٧.
[٤] د/ محمود عواد، معجم الطب النفسي والعقلي، دار أسامة، عمان ـ الأردن، ٢٠١١م، صـ ٢٥٦.
[٥] محمد عطا، الشاعر أبو تمام (دراسة فنية نفسية)، الدار القومية للطباعة والنشر، صـ ٥٤.

أما عن ظاهرة الحبسة التي أصابت أبا تمام فقد أرجعها أحد المؤلفين إلى "التوتر النفسي المصاحب للقلق أو الخوف أو فقدان الشعور بالأمن"[٦]، وكان هذا نتيجة تأثره بالحروب التي قامت بين القيسية واليمنية في دمشق (مسقطه)، فضلًا عما كان يسود في الشام، كما نتجت هذه الظاهرة عن أمور أخرى، ومنها: تأثر الشاعر بفقدان أقرب الناس إليه ــ مع حدسه بالأمور قبل حدوثها ــ جعله ينتظر الموت في كل لحظة، وحرمه من متعة الحياة ولذتها.

بناء على ما سبق تكونت عقدة النقص عند أبي تمام حتى أصبح "حَيِيًّا، جبانًا، منطويًا على نفسه، ميالًا إلى التأمل، مرهف الحس، شديد الانفعال"[٧]، محاولًا أن يتغلب على قصوره العضوي، والنفسي من خلال إبداعه في اختيار الألفاظ الغريبة الصعبة حتى تبنى مذهب البديع، والخروج على عمود الشعر في عصره وبعد عصره؛ وذلك إثباتًا لقدرته الكلامية، وموهبته الفذة في انتقاء هذه اللغة، وفي نطق مثل هذه الألفاظ.

أما عن البحتري فقد عاش في ظروف مشابهة لظروف أستاذه، فقد كان يشتكي الفقر والحرمان، فحين ذهب إلى أستاذه ليعرض عليه شعره كما كان يفعل الشعراء، انتظر حتى انصرف الجميع، ليسأله أستاذه عن حاله: كيف بالله حالك؟، فيجيب البحتري ويقول على لسانه: "فشكوتُ خَلَّةً، فكتب (يقصد أبو تمام) إلى أهل مَعَرَّة النُّعمان، وشهد لي بالحِذق بالشعر، وشفع لي إليهم، وقال: امتدحْهم، فصرتُ إليهم، فأكرموني بكتابه، ووظَّفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أوّلَ مالٍ أصبتُه"[٨].

يتضح من هذا الخبر الحالة الاقتصادية الصعبة التي كان يعيشها الشاعر، قبل تمكنه من الاتصال بالخلفاء والوزراء وغيرهم، فهو لم يستطع اكتساب المال من قبل،

---

[٦] السابق، صـ ٥٥.
[٧] السابق، صـ ٥٤.
[٨] الأصفهاني، الأغاني، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م، ج٢١، صـ ٣٣.

وكان هذا المال الذي حصل عليه جزاء مدحه هو أول مال يحصل عليه كما قال على لسانه، ويؤكد ذلك أيضًا هيئته المتسخة، وبخله الشديد، حيث "كان البحتري من أوسخ خلق الله ثَوْبًا، وآلةً، وأبخلهم على كل شيء ــ حتى على أقرب الناس له ــ فقد "كان له أخ وغلام معه في داره، فكان يقتلهما جوعًا، فإذا بلغ منهما الجوعُ أتياه يبكيان، فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مُضيِّقا مُقَتِّرا، ويقول: كُلا، أجاعَ الله أكبادَكما، وأعرى أجلادَكما، وأطال إجهادَكما"[٩].

من ثم تحققت معالم عقدة النقص عند الشاعرين، وقد حاولا أن يتغلبا عليها باللجوء إلى آلية التعويض التي مكنتهما من التعبير عن رغبتهما في التميز والتفوق، وبناء عليه سيتناول هذا البحث بالدراسة المعاني النفسية التي ظهرت عند أبي تمام والبحتري في إطار خروج الأول عن عمود الشعر المتبع، وتمسك الآخر به، وهو ما تفصح عنه نصوصهما الشعرية التي وظف فيها فن المبالغة عن بعض المشاعر السلبية التي كانت نتيجة حتمية (لشعور الشاعرين بعقدة النقص أوالدونية)، والمترتب عليها لجوء الشخص إلى آلية معينة للدفاع عن نفسه المنطوية على إحساس الإهانة والذل، وأنه أقل ممن حوله في بعض الأمور، لتبقى هذه العقدة مترسخة في سلوكية الفرد، وتصاحبه لتظهر نتائجها التعويضية المقابلة لها، والمتمثلة في بذل مجهودات خاصة لإخفاء مشاعر النقص، من محاولته إثبات تفوقه، أو تميزه وغيرها من المظاهر التعويضية التي تحقق له شعور الاكتفاء الذاتي.

بالنظر إلى أخبار أبي تمام وتلميذه البحتري نجد أن هذه الظاهرة (ظاهرة الرغبة في التميز) قد تحققت وبخاصة في شعر المدح، فقد حاولا أن يتميزا عن أقرانهم من الشعراء، فها هو أبو تمام يتفوق على نفسه بعد أن تجمعت عوامل عديدة من "عاهة التمتمة التي لازمته طوال حياته، فالعامل النفسي في إيجاد هذه العاهة هو "التوتر

[٩] السابق، صـ ٣٥.

النفسي المصاحب للقلق والخوف"، أو فقدان الشعور بالأمن أوالشعور بالنقص... كل هذه العوامل تظاهرت على أن تقوي فيه شعوره بنقصه مما ولد فيه شعورًا مقابلًا، أو بتعبير علماء النفس كونت فيه عقدة التفوق، إذ ليس بخاف أن العمل على التفوق والشعور بالنقص إحساسان عاديان يكمل أحدهما الآخر، فنحن لا نعمل للتفوق والنجاح إذا لم نشعر بوجود نقص ما في حالتنا الحاضرة"[١٠]. فقد تفوق أبو تمام على نفسه حين اعتكف للاطلاع على الثقافات المختلفة في عصره، فضلا عن إنه "كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطع، ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم"[١١].

أما عن تلميذه البحتري فنراه يشيد بنفسه ليثبت للناس مدى تفوقه؛ وذلك في مدحه للخليفة المتوكل، "حيث يتشادق ويتزاور في مشيه مرّة جانبًا، ومرَّة القَهْقَري، ويهزّ رأسه مَرَّة، ومنكبيه أُخرى، ويشير بكُمِّه، ويقف عند كلّ بيت، ويقول: أحسنتُ والله، ثم يقبل على المستمعين، فيقول: ما لكم لا تقولون أحسنت؟، هذا والله ما لا يُحسِن أحدٌ أن يقول مثله"[١٢].

فالبحتري يريد أن يلفت النظر إليه، حيث استغل فرصة حضور المتوكل، ومدحه إياه، ويقول للناس انظروا إليّ، فأنا متميز عنهم جميعا بل متفوق عليهم، فهو يحسن في قول الشعر ما لا يحسن أحد فيه. من ثم وظفت المبالغة التعويضية في أشعارهما، وبخاصة في مدحهما للخلفاء؛ وذلك للرغبة في التميز والتفوق على الآخرين.

بالنظر إلى قصائد أبي تمام الشعرية في المدح، نجد أنه قد وظف فن المبالغة في أكثرها؛ وذلك رفعةً لشأن الممدوح، وإعلاءً لمنزلته، وإن انطوى ذلك على معان نفسية أخرى داخل نفس الشاعر نلمحها بعد التمعن في أشعاره، أليس هو القائل[١٣]:

---

[١٠] محمد عطا، الشاعر أبو تمام (دراسة فنية نفسية)، صـ ٥٥.
[١١] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، م٢، صـ ١٢.
[١٢] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، صـ ٤٠.
[١٣] المستوفى من شعر أبي تمام (ديوان حبيب بن أوس الطائي)، صنعة د/محمد مصطفى أبو شوارب، مؤسسة البابطين، الكويت، ٢٠١٤م، م٤، صـ ١٤٢.

[مخلع البسيط]

هارونُ يا خَيْرَ مَنْ يُرَجَّى لَمْ يُطِعِ اللهَ مَنْ عَصاكا

لَو كانَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَحْيٌ إلى وَلِيٍّ لكُنْتَ ذاكا

فالشاعر في إطار مدحه للواثق بالله نجده يوظف المبالغة في البيت الثاني، إذ ينزه هذا الممدوح من كل قبيح ليجعله في منزلة الأولياء الأبرار الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى، لنشر رسالته السماوية، مستخدمًا الحرف (لو) الذي جعل هذا الوصف مقبولًا عقلًا وإن كان مرفوضًا عادة.

يستمر الطائي في توظيف "مبالغاته التعويضية"؛ تعبيرًا عن تميزه وتفوقه الأدبي وسط الشعراء، متميزًا بالتعمق في ألفاظه ومعانيه، ففي إطار مدحه لأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي، يقول[١٤]: [الكامل]

أَنتَ الفَتَى كُلُّ الفَتَى لَو أَنَّ ما تُسْدِيهِ في التَّأنِيبِ في الإسعادِ

الآنَ جُرِّدَتِ المَدائِحُ وَانْتَهَى فَيْضُ القَرِيضِ إلى عُبَابِ الوادِي

وَتَبَجَّسَتْ لِلْجُودِ مِنْ نَفَحَاتِهِ قُلُبٌ يَكَدْنَ يَقُلْنَ هَلْ مِنْ صَادِ

أَضْحَتْ مَعاطِنُ رَوْضِهِ وَمِيَاهُهُ وَقْفًا عَلى الرُّوَّادِ والوُرَّادِ

ما لامْرِئٍ أَسَرَ القَضاءُ رَجاءَهُ إِلَّا رَجاؤُكَ أو عَطاؤُكَ فادِي

أَمْتَعْتَ سَيْفَكَ مِنْ يَدَيْكَ مَغُوثَةً لا تُمْتِعُ الأَرْواحَ بِالأَجْسَادِ

قَدْ كادَ مَضْرِبُهُ يُجالِدُ جَفْنَهُ لَوْ لَمْ تُسَكِّنْهُ بِيَوْمِ جِلادِ

وَالسَّيفُ مُغْفٍ غَيرَ أَنَّ غِرارَهُ يَقِظٌ إذا هادٍ نَحاهُ لِهادِ

أَحْيَيْتَ ثَغْرَ الجُودِ مِنكَ بِنائِلٍ قَدْ ماتَ مِنْهُ ثَغْرُ كُلِّ فَسادِ

ما لِلخُطُوبِ طَغَتْ عَلَيَّ كَأَنَّها جَهِلَتْ بِأَنَّ نَدَاكَ بِالمِرْصَادِ؟!

سَل مُخْبِراتِ الشِّعْرِ عَنِّي هَل بَلَتْ في قَدْحِ نارِ المَجْدِ مِثْلِ زِنَادِي

---

[١٤] السابق، م٢، صـ ٢٨١.

وَغَدًا تَبَيَّنُ كَيفَ غِبُّ مَدائِحي إِنْ مِلْنَ بِي هِمَمِي إِلى بَغْدادِ

وَمِنَ العَجائِبِ شاعِرٌ قَعَدَتْ بِهِ هِمَّاتُهُ أو ضاعَ عِنْدَ جَوادِ[١٥]

ينتقل الشاعر من مدح الواثق بالله في البيتين السابقين إلى مدح أبي المغيث الرافقي، حيث يضعه في منزلة سامية؛ ليرى أنه قد انتهت عنده المدائح، لما امتاز به من خصال عظيمة، فقد تفجرت من نسمات عطائه وسخائه العديد من الآبار التي كادت أن تقول: هل من سائل؟!؛ وذلك من فيض جوده وكرمه، حيث أصبحت مواطن الكلأ والماء مقصورة على طالبيه، فما شهد القوم عطاء مثل عطاء موسى الذي ملأ الدنيا به، إذ مكنّه من إنقاذ قومه من أهوال الدنيا ونكباتها، كما أنقذ سيدنا موسى قومه من ظلم فرعون وبطشه.

من ثم تظهر من خلال المماثلة التي وظفها الشاعر بين هذا الممدوح الذي أفاض جوده على القوم حتى يقضي على حالة البؤس والفساد التي حلت بهم، وبين النبي موسى عليه السلام الذي حمل رسالته ضد فرعون وأمثاله، أنه يريد أن يعزز ويقرب مبالغاته إلى ذهن المتلقي من خلال هذا التقارب بين أفعالهما.

ويكمل الشاعر بمبالغة أخرى، حيث يخرج الأمرعن حد المعقول لترتفع المبالغة إلى حد الغلو المرفوض عقلًا وعادةً، وذلك حين يتحدث عن عطاء الممدوح الذي يمتع جميع الناس، فهو لم يكن مصدر العون لهذه الأجساد والأرواح فقط، بل فاض هذا الجود وزاد؛ ليكون مصدرًا أيضًا لكل ما هو مادي أو معنوي حوله. ويعكس هذا الغلو التعويضي حالة من الإحباط النفسي من أن يحقق الشاعر مثل هذه الأمور، وسرعان ما يعود مرة أخرى إلى التبليغ حتى يستعيد توازنه النفسي، وذلك حين لجأ إلى وصف شجاعة هذا الممدوح وبسالته، حيث كاد حد سيفه أن يضارب غِمْده بعد الضرب المبرح

---

[١٥] **العباب:** أول الشيء، **تبجست:** تفجّرت، **القلب:** الآبار، **الصادي:** العطشان، **المعاطن:** مبارك الإبل عند الماء، **الرواد:** جمع الرائد، وهو من يستطلع الكلأ للقوم، **الوراد:** طالبو الماء، **مضرب السيف:** حده، **الجفن:** الغِمْد، **مغف:** نائم، **غرار السيف:** حدّه، **الهادي الأول:** المرشد، **الهادي الثاني:** المتقدّم في الحرب، **النائل:** العطاء، **بلت:** خبرت، **الغب:** العاقبة.

بـه فـي المعركـة، وذلـك إن لـم يُسكّنه فـي موضـعه المخصـص لـه، فسـيفه كثيـرا مـا يُضـرب به، وكأنه يقود صاحبه إلى الموت أو الإقبال على الحرب.

ويقـود هـذا المعنـى الشـاعر للعـودة مـرة أخـرى إلـى الحـديث عـن الخصـال العظيمـة التـي تمثلـت فـي عطـاء الممـدوح وجـوده، إذ اسـتطاع أن يُبعـث الـروح مـن جديـد فـي أرواح هـؤلاء السـائلين، كمـا قضـى بـه أيضـا علـى كـل فسـاد أو هـدم يمكـن أن يحـل بقومـه؛ نتيجـة البـؤس أو الفقـر الـذي حـل بهـم، فكيـف يمكـن أن يستسـلموا لهـذه النكـوب، وقـد وقـف لهـا هـذا الممدوح بالمرصاد؟!.

وتتغلـب ظـاهرة رغبـة الشـاعر فـي التميـز والتفـوق عليـه؛ لـيلمح إلـى حاجتـه إلـى الممـدوح، ويطلـب منـه أن يسـأل مخبـرات الشـعر عنـه، وعمـا فعلـه جـوده وكرمـه، كمـا يخبـره بأنـه سـوف توضـح لـه عاقبـة مدائحـه التـي أصـبحت أملـه الوحيـد للـذهاب إلـى بلـد آخر، فمن العجب أن تنتهي طموحاته وآماله عند جَوَاد مثله.

مـن ثـم نجـد أن أبـا تمـام قـد لجـأ إلـى هـذه المبالغـات التعويضـية التـي وصـلت إلـى حـد الغلـو أحيانـا؛ رغبـةً منـه فـي وضـع (صـورة مثلـى للممـدوح) الـذي اتسـم بالعديـد مـن الخصـال العظيمـة التـي تتصـدرها صـفتي (الجـود والعطـاء)، حيـث تعـد هـذه الصـفات مـن الفضـائل التـي تُمجـد عنـد العـرب، فضـلًا عـن الفضـائل الأخـرى مثـل الشـجاعة والعـدل وإغاثـة الملهـوف وغيرهـا، كمـا نلاحـظ أن الشـاعر لديـه رغبـة جامحـة فـي (إثبـات مـدى تفوقـه وتميـزه الأدبـي)؛ وذلـك فـي تلميحـه لمدائحـه فـي بدايـة الأبيـات التـي انتهـت عنـد هـذا الممدوح لمنزلته السامية، وكذلك في النهاية إذ يشير إليها وعاقبتها عليه وعلى ممدوحه.

ولـيس أدل علـى الظـاهرة النفسـية مـن إبـداع الشـاعر فـي قصـيدة فـتح عموريـة التـي مـدح فيهـا المعتصـم ـــ وإن تكـررت هـذه الظـاهرة فـي أكثـر مـن قصـيدة[١٦] ـــ حيـث يقول[١٧]:

[البسيط]

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ في حَـدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ

أَيْنَ الرِّوايَـةُ بَلْ أَيْـنَ النُّجـومُ وَمَا صاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فيها وَمِنْ كَذِبِ

وَخَـوَّفُوا النَّـاسَ مِنْ دَهْيَـاءَ مُظْلِمَةٍ إذا بَـدَا الكَـوْكَـبُ الغَـرْبِيُّ ذو الذَّنَبِ

لَو بَيَّنَتْ قَطُّ أَمْـرًا قَبْلَ مَـوْقِعِـهِ لَـمْ تُخْفِ ما حَلَّ بِالأَوْثَـانِ والصُّلُبِ

فَتْحَ الفُتـوحِ تَـعَـالَى أَنْ يُحـيطَ بِهِ نَـظْمٌ مِنَ الشِّعْـرِ أو نَـثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فَتحٌ تَـفَـتَّحُ أَبْـوَابُ السَّمـاءِ لَـهُ وَتَـبْرُزُ الأَرْضُ فـي أَثْـوابِهَا القُشُبِ

يا يَـوْمَ وَقْعَـةِ عَـمُّـورِيَّةَ انْصَرَفَتْ مِـنْـكَ المُـنَى حُـفَّلًا مَعْسُولَـةَ الحَلَبِ

أُمٌّ لَهُمْ لَو رَجَوْا أَنْ تُفتَدَى جَعَلُوا فِـــدَاءَهـــا كُـــلَّ أُمٍّ مِـنْـهُـمُ وَأَبِ

لَمَّا رَأَتْ أُخْتَها بِالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ كانَ الخَـرَابُ لَها أَعْدَى مِـنَ الجَـرَبِ

حَتَّى كَأَنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ عَـن لَـوْنِـهَـا وَكَـأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

سَماجَـةً غَـنِيَـتْ مِنَّا العُيونُ بها عَـنْ كُلِّ حُسْنٍ بَـدَا أَوْ مَنْـظَرٍ عَجَـبِ

تَـدْبِـيرُ مُعْتَصِـمٍ بِـاللهِ مُـنْـتَـقِـمٍ للهِ مُـــرْتَـــقِـــبٍ فـي اللهِ مُـــرْتَـــغِـــبِ

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إلى بَلَـدٍ إِلَّا تَـقَـدَّمَـهُ جَـيْـشٌ مِـنَ الـرُّعُـبِ

لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلًا يَوْمَ الوَغَى لَغَدا مِـنْ نَـفْسِهِ وَحْـدَهـا في جَحْفَلٍ لَجِـبِ

رَمَـى بِـكَ اللهُ بُـرْجَـيْـهَا فَهَدَّمَها وَلَـوْ رَمَـى بِـكَ غَـيْـرُ اللهِ لَـمْ يُصِـبِ[١٨]

---

[١٦] انظـر حبيـب بـن أوس الطـائي، ديوانـه، م١، ص (١٩٨، ٢٨١)، م٢، ص (١٦٦، ٢٠٠، ٢١٣، ٢٦٣، ٢٩٣)، م٤، ص (١٥٦، ٢٥٧)، م٥، ص (٧٣).

[١٧] السابق، م١، صـ ٣٣٠ ، وما بعدها.

[١٨] **الحد الأول**: حدُ السيف، **والحد الثاني**: الفاصل بين الشيئين، **الزخرف**: الكلام المكذوب، **الدهياء**: الداهيـة والأمـر العظيم، **مظلمة**: أي لا سبيل إلى الخلاص منها، **ذو الذنب**: الكوكب المذنب، **الأوثـان والصلب**: يعنـي بهمـا الروم، **القشب**: الجديد،

يمدح الشاعر في هذه الأبيات على شأن ممدوحه المعتصم بين قومه، حيث يصف شجاعته وإيمانه بالانتصار، وعدم اهتمامه بأقوال المنجمين الذين قد حذروه من الخروج إلى مدينة عمورية في هذا الوقت؛ وذلك لأن كتبهم تنبأت بالهزيمة، ولكنه لم يُبالِ بأقوالهم وأكاذبيهم، ليثبت مدى بسالته وإقدامه على الأمور الجسام التي يعجز غيره أن يحققها، من ثم يشعر الشاعر بلذة الانتصار ليجعل مطلع قصيدته متمثلًا في أن ممدوحه قد استطاع أن يسقط كل هذه الخرافات، ويجعل الكلمة الأولى للسيف الذي كان هو الفيصل بين الجد الذي أقره الممدوح، والهَزْل الذي ابتدعه هؤلاء المنجمين بعد ما بدا لهم الكوكب المذنب الذي يشير إلى وقوع الفتن والخلافات العظيمة التي تغير مصير الولايات، إذا خرج إلى فتح هذه المدينة الكبيرة التي يرجع مقرها إلى بلاد الروم، ولكنه كذّب جميع هذه الكتب والكواكب التي لو آمن بما تنبأت به لما تحقق له هذا الأمر الجلل وهو "فتح مدينة عمورية"، فتح الفتوح الذي يعجز الشعر أو النثر أن يحيط به، ويظهر عظمته؛ فضلًا عن أنه الفتح الذي فُتحت له أبواب السماء، فاستبشرت بهذا النصر، كما خرجت الأرض مبتهجة في ثوبها الجديد.

ولم يكتف الشاعر في الاحتفاء بهذا النصر بهذه المبالغة، بل يكمل بمبالغات أخرى يؤكد بها مدى تفوقه وتميزه في وصفه لهذا الفتح العظيم الذي شعر بحلاوته، وكأنه يستطعم لبنًا ممزوجًا بالعسل، فعمورية هي البلدة الأم التي تجمعهم وتضمهم جميعا، كما تضم الأم ولدها، والتي إذا استطاعوا أن يقدموا أنفسهم فداءها لافتدوا خرابها ودمارها، ولم يحل هذا الخراب بها فقط، فقد حلّ من قبل بأختها أنقرة، فلما أن خربت هذه البلدة خربت عمورية كذلك، ولكن لم يستمر هذا الخراب، فقد وضع الله

عمورية: مدينة كبيرة في بلاد الروم في هضبة الأناضول وسط تركيا، فتحها الخليفة المعتصم سنة ٢٢٣هـ، **حفل**: وهي الناقة التي امتلأ ضرعها باللبن، **الحلب**: ما حلب من اللبن، **الأم**: أصل الشيء ومعدنه، **أعدى**: من العدوى انتقال المرض، **الجلابيب**: جمع الجلباب وهو الثوب المشتمل على الثوب كله، **الدجى**: الظلام، **رغب عن الشيء**: تركه وزهد فيه، **السماجة**: القبح، **الجحفل**: الجيش العظيم، **الوغى**: الحرب، **لجب**: كثير الصَّخَب، **البرج هنا**: الحِصن، **رمى بك الله:** أي أن قتالك في سبيل الله.

سبحانه وتعالى كلمته، وحل النور بجميع أرجاء هذه البلدة محل الظلام، وكأن الشمس لم تغب عنها منذ ذلك الفتح العظيم احتفاءً وترحيبًا به، حيث إن الحرائق قد أضاءت الليل وجعلته كنهار مشمس، فالشمس طالعة ساطعة بنورها من شدة اللهب، وفي الوقت ذاته غائبة لكثافة الدخان المنبعث من شدة الحرائق، فقد كان ذلك الخراب يمثل قبحًا عند أهلها، ولكنه غاب بعد هذا النصر، فقد استغنت العيون عن أي جمال أو حسن بهذه المدينة المباركة؛ لأنها تفوق كل حسن في عيونهم، وهذا بتدبير من المعتصم بالله المنتقم له، والآخذ بثأر المسلمين، المرتقب لنصر الله حتى أتاه، فهو راغب في رضاه، لم يخرج لغزو قوم أو إلى بلد إلا وسبقه جيش قوي ضخم من الرعب يُبث في نفوس أعدائه.

وفي إطار مبالغات الشاعر التي وصلت إلى حد "الغلو التعويضي"، من حيث إنه جعل هذه البلدة هي الأم التي يتصارع الجميع من أجل تقديم روحهم فداءً لها، وبخاصة بعد أن فتحها خليفتهم بجيش من الفزع والخوف؛ لتعلو بحسنها فوق أي حسن آخر، نجده يستمر في غلوه الذي تمثل في جعل المعتصم وحده يعادل جيشًا كاملًا في هذا القتال، إذ كان قتاله في الله، ولو لم يكن لما انتصر على أعدائه، ولما حقق هذا النصر العظيم، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على علو شأن الممدوح في نفس الشاعر، كما يدل على رغبته في إظهار مدى تمكنه وتميزه الأدبي، وخاصة في مثل هذه الوقائع العظيمة التي قادها أحد أهم الخلفاء في عصره.

ويعلق الدكتور طه حسين على هذه القصيدة التي نجد فيها "روح أبي تمام ماثلًا قويًا"[١٩]، وهي روح الزعامة و"التفوق الذي لم يُسبق إليه، فأبو نواس على أنه كان زعيمًا في عصره، لم تسلم له الزعامة، بل كان يناوئه فيها الشعراء، منهم مسلم بن الوليد، والشعراء في العصر الأول لم تسلم لواحد منهم الزعامة، فلم يستطع الأخطل ولا

[١٩] د/ طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م، صـ ١٠٣.

الفرزدق ولا جرير أن يستق بها، أما أبو تمام فليس من شك أنه قد انفرد بالزعامة في وقت من الأوقات، حتى اعترف له بها خصومه، فالبحترى كان يرى نفسه تلميذًا لأبي تمام، وكان يقول: إنما أكلت الخبز بفضل أبي تمام. فأبو تمام أول شاعر إسلامي استطاع أن يفرض زعامته فرضًا، وأن يعترف له بها الناس جميعا، دون أن يزاحمه فيها أحد مزاحمة جدية"[٢٠].

بهذا الكلام يمكن أن نسلم ــ نحن - أيضًا بسبق أبي تمام وزعامته التي لا يمكن أن ينافسه فيها منافس، فقد فرضها فرضًا على كل من عاصره؛ ليثبت بها مدى تفوقه وتميزه الأدبي الذي ظهر كذلك في مذهبه الغامض الذي تبناه، وانفرد به، وهو الذي لم يلفت نظر الشعراء القدامى فحسب، بل لفت نظر الشعراء المحدثين كذلك، فها هو أحمد شوقي الذي "اتخذ قصيدة أبي تمام هذه نموذجًا حين أراد أن ينظم قصيدة في انتصار الترك. ومن غريب الأمر أن اتخذ القصيدة نموذجًا في اللفظ والمعنى، وفي الوزن والقافية، فهي من البسيط وقافيتها الباء ورَويّها مكسور، وكذلك قصيدة شوقي؛ فأبو تمام إذن هو الذي قدم إلى شوقي قوافيه وشيئًا غير قليل من ألفاظه ومعانيه، وبخاصة هذا التشبيه الذي كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم، تشبيه يوم عمورية بيوم بدر؛ لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبي وهو يجاهد للدين، بينه وبين بدر قرنان ليس غيرُ، وانتصاره بمعجزة كانتصار النبي يوم بدر، أشرف له وأجدى عليه... وأساء شوقي اختلاسَ هذا التشبيه، فقد كنا نرى أن أبا تمام أورده مورد الشك حين استعمل أداة الشرط، وأورده شوقي مورد اليقين، وأن أبا تمام أورده في بيتين، وأورده شوقي في أبيات. قال أبو تمام: [البسيط]

إن كانَ بَيْنَ صُروفِ الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أَو ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتي نُصِرْتَ بِها وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

---

[٢٠] السابق، صـ ٩٧.

وقال شوقي: [البسيط]

يــومٌ كـبـدرٍ فـخـيـلُ الـحـقِ راقـصـةٌ على الصعيد وخـيـل الله في السُّحُـبِ
غُـــرٌّ تـظـلِّـلُها غـــرّاءُ وارفــــةٌ بَــدريّــةُ العُــودِ والـدِّيـــبـاجِ والعَـــذَبِ
نَشوى من الظَـفَرِ العـالي مُــرَنَّحـةٌ من سَكْرة النصر لا من سكرة النَّصَبِ
تـذكّر الأرض مـا لم تنس من زبدٍ كالـمِسك من جـنبـات السَّكْب مُنسكبِ
حـتى تـعـالى أذانُ الفـتـح فـاتَّأَدَت مَشْيَ المُجَليِّ إذا استولى على القصب

إن البيـت الأول مـن بيتـي أبـي تمـام يعـدل قصـيدة شـوقي كلهـا. وكنـت أرى ــ كـلام المؤلـف ــ أن مـن الظلـم أن يقـاس هـذا الشـعر الـذي لا يـدل علـى شـيء إلـى بيت كهـذا البيـت فيــه الشــك واليقــين معــا؛ وفيــه المبالغــة والاقتصــاد معًــا، وفيــه اللفــظ الرصــين يــدل علــى المعنــى الجيــد... وفــي قصــيدة أبــي تمــام مــن الشــعر مــا لاءم الــذوق القــديم، ويلائــم الــذوق الحـديث، ويعجـب بــه الشــرقي والغربــي معــا؛ لأنـــه الشـــعر فـــي نفســـه، فيـــه قـــبس مـــن هــذا الجمـال الخالـد الـذي هـو فـوق الزمـان والمكـان والجنسيات، ويخـتم الناقـد كلامـه بقولـه: "لـو أنــك التمســت الشــعر فــي قصــيدة شــوقي هــذه لمــا وجــدت منــه شــيئًا، فــإن أبيــتَ فــدلّني عليه!"(٢١).

اتفـق كـل الاتفـاق مـع رأي الناقـد، فقـد اسـتطاع أبـو تمـام أن يثبـت ذاتـه، ويفـرض زعامتــه، ويلفـت نظـر الشــعراء القـدامى والمحـدثين علــى حـد سـواء، ولا يمكـن لأحـد أن ينافسـه فـي ذلـك، أو يحـاول تقليـده، وإن حـاول أحـد فلـم يكـن سـوى تقليـدًا سـخيفًا ـ كمـا رأينـا فـي محاولـة شـوقي ــ الـذي عبـر عـن احتفائـه بانتصـار التـرك فـي عدة أبيـات تمكـن أبـو تمـام بعبقريتـه أن يعبـر عنهـا فـي بيـت واحـد أو بيتـين. وهنـاك أمثلـة أخـرى قـد ذكرهـا الناقـد تؤكـد نفس هذه الفكرة.

[٢١] د/ طه حسين، حافظ وشوقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، صـ ٤٢ وما بعدها.

ويمدح الشاعر أبا سعيد الثغري، فيقول[٢٢]: [الكامل]

داعٍ دَعـا بِلِسانٍ هـادٍ مُرْشِـدِ فَـأَجابَ عَزْمٌ هاجِدٌ في مَـرْقَـدِ
لَمَّا رَأَيْتُكَ يا مُحَمَّدُ تَصْطَفِي صَفْوَ المَحامِدِ مِنْ ثَناءِ المُجْتَدِي
سَيَّرْتُ فِيكَ مَدائِحي فَتَرَكْتُها غُرَرًا تَروحُ بِها الرُّواةُ وَتَغْتَدِي
وَلَـرُبَّ حَـرْبٍ حائِـلٍ لَقَّحْتَها وَنَتَجْتَها مِنْ قَبْلِ حِينِ المَوْلِدِ
فَـإِذا بَعَثْتَ لِناكِثِينَ عَزِيمَةً عَصَفَتْ رُؤوسٌ مِنْ سُيوفٍ رُكَّـدِ
إِنَّ الخِلافَةَ لَو جَزَتْكَ بِمَوْقِفٍ جَعَلَتْ مِثالَكَ قِبْلَةً لِلمَسْجِدِ
وَسَعَتْ إِلَيكَ جُنودُها حَتَّى إِذا وافَتْكَ خَـرَّ لَـدَيْكَ كُلُّ مُقَلَّدِ
لَو أَنَّ هَرْثَمَةَ بنَ أَعْيَنَ في الوَرَى حَـيٌّ وَعـايَنَ فَضْلَهُ لَم يَجْحَدِ
أَو شاهَدَ الحَرْبَ المُمِرَّ مَذاقُها لَـرَآهُ أَقْمَعَ لِلعُتاةِ العُنَّـدِ
أَمَّا الجِيادُ فَقَدْ جَرَتْ فَسَبَقْتَها وَشَرِبْتَ صَفْوَ زُلالِها في المَورِدِ
وَطَلَعْتَ في دَرَجِ العُلا حَتَّى إِذا جِئْتَ النُّجُومَ نَزَلْتَ فَوْقَ الفَرْقَدِ[٢٣]

علـى غرار مـا سبق يمـدح الشـاعر فـي هـذه الأبيـات أبـا سـعيد الثغـري الـذي يرجـع نسبه إلـى قبيلـة طيئ، حيث كـان مـن قـواد حُميد الطوسـي، وقـد مدحـه أبـو تمـام فـي أكثـر مـن موضـع، ولـه العديـد مـن الأخبـار التـي جمعت بينهمـا[٢٤]، فهـو ذلـك الشـخص الـذي اصـطفى خصـاله الحميـدة، وصـفاته العظيمـة التـي حتمـا تلفـت انتبـاه الجميـع؛ لنـدرة المتسـمين بهـا، فقـد اكتفـى الشـاعر بمدحـه والثنـاء عليـه، ولاسـيما أن هـذه المـدائح لهـا شـرف أن يرويهـا الـرواة، وهـي تحمـل اسـم هـذا الممـدوح الـذي عُـرف بمـدى بسـالته وشـجاعته، حيـث يسـتطيع أن يقيم الحـرب العقيم بعد سكونها وخمولهـا، بـل يزيـد مـن هياجهـا واضـطرابها، وذلـك قبـل

[٢٢] حبيب بن أوس الطائي، ديوانه، م٢، صـ ٢٣٠.
[٢٣] **هاجد**: راقد، **المجتدي**: طالب المعروف، **الحائل**: العقيم، **نتجتها**: أولدتها، **الناكثون**: هنا الناقضون العهد، **السيوف الركد**: الثابتة في أيدي الضاربين، **المقلد**: من علق حمالة السيف في عنقه، **هرثمة بن أعين**: قائد أمير ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨هـ ، **أقمع**: أزجر، **العند**: العنيدون.
[٢٤] انظر الصولي، أخبار أبي تمام، تحقيق خليل محمود عساكر، تقديم د/ أحمد أمين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١٩٨٠،٣م، صـ ٢٢٧ وما بعدها.

أن تولد، فهو فتى هذه الحروب وقائدها، كما استطاع أن يُبعث روح العزيمة والإرادة مرة أخرى في نفوس ناقضي العهد؛ لتنتقل هذه الروح عالية الهمة إليهم ليرجعوا عن خمولهم وضعفهم ثم إلى السيوف الثابتة في أيدي ضاربيها، بهذه المبالغة أظهر الشاعر المقابلة بين شجاعة هذا القائد، وعزيمته العالية على الحرب، وبين هؤلاء الناكثين الذين اعتادوا على نقض العهد والركود.

ويكمل الشاعر بمبالغة أخرى في إطار تعداد صفات الممدوح، حيث أراد أن يرسم صورة مثالية له؛ فيجعل جزاءه أو مكافأته نظير هذه الأعمال العظيمة أن يكون أمثاله قبلة للمسجد التي يتوجه إليها الناس بقلوبهم الخاشعة، ونفوسهم الراضية يرجون رضا الله عزوجل، ويعملون على طاعته، ويخرّون له سجدًا. من ثم لا يمكن أن يُنكر أويُجحد فضله، حتى لو أن هرثمة بن أعين قائد الدولة العباسية حيٌ وعاين فضله ما أنكره، أوشاهد هذه الحرب الشعواء التي أقامها لأيقن مدى شجاعته وبسالته التي أذلت وقهرت هؤلاء العتاة المتكبرين، فضلًا عن قوته وإقدامه في القتال، فقد استطاع أن يسبق الخيل ويتقدمها، إذ وصل إلى أعلى القمم التي لا يمكن لأحد أن ينالها، لينزل فوق إحدى النجوم الثابتة التي لا يزحزحه أو ينافسه فيها أحد.

أما عن البحتري فقد ظهرت هذه الظاهرة في إطار مدحه لابن بسطام، إذ يقول[٢٥]:

[الوافر]

بِعَمْرِكَ تَدْرِي أَيُّ شَأْنَيَّ أَعْجَبُ فقد أَشْكَلَا بادِيهُمَا والمُغَيَّبُ؟

وإنَّ ابْنَ بِسْطَامٍ كَفَانِي انْفِرادُهُ مُكَاثَرَةَ الأَعداءِ لمَّا تألَّبُوا

وما عاقَهُ أَنْ يَطْعُنَ الخَيلَ مُقْدِمًا على الهَوْلِ فيها أنَّهُ باتَ يَكْتُبُ

مُدَبِّرُ جيشٍ ذَلَّلَ الأرضَ شَغْبُهُ وعَزْمَتُهُ من ذلك الجيش أَشْغَبُ

[٢٥] البحتري، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، ط٣، م١، صـ ١٣٤.

وأَبْيَضَ يَعْلُو حين يرتاحُ للنَّدى ... على وَجْهِهِ لَوْنٌ من البِشْرِ مُشْرَبُ
لــهُ هِـــزَّةٌ من أَرْيَحِـيَّـةِ جُـودِهِ ... تكادُ لها الأَرضُ الجَدِيبةُ تُعْشِبُ
تَجَـاوَزُ غاياتِ العُقـولِ مَواهِبٌ ... نَـكَـادُ لـهـا لَـولا العِـيَـانُ نُكَذِّبُ
خَـلائـقُ لو يَـلْـقَى زِيَـادٌ مِـثَالَها ... إذنْ لم يَقُلْ "أيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ"
وما عَدَلَتْ عنك القصائدُ مَعْدِلًا ... ولا تَركَتْ فَضْلًا لغيرك يُحْسَبُ[٢٦]

يمدح الشاعر بهذه الأبيات ابن بسطام الذي كان عاملًا على الشام، ويبدي إعجابه بمدى تفرده وتميزه عن غيره من البشر، وقد كفاه هذا الانفراد ليرقى بمكانته إلى المراتب العليا التي يرجوها الآخرون دون جدوى، حيث إنه يتمتع بسمات تؤهله لهذه المكانة، فهو يستطيع أن يقهر أعداءه الكثر منفردًا دون تدخل من أحد؛ وذلك حين يحتشدون ويحاولون أن يتآمروا عليه حتى يضعفوا إرادته، ويقهروا عزيمته، كما لا يمنعه إقدامه وبسالته من أن يتقدم الخيل في المعارك الدامية، فهو قائد ومدبر هذا الجيش العظيم الذي استطاع به وبشجاعته أن يُخضع ويُذلل الأرض وما عليها تحت سطوته وقبضته.

ويستمر الشاعر في إغراقه التعويضي؛ رغبةً منه في الوقوف على تفرد الممدوح؛ من ثم يحاول الشاعر أن يرسم صورة مثالية له، هي الصورة التي ظهرت في تجاوزه كل معاني الجود والكرم، إذ ظهر على ملامح وجهه البشر والصفاء والهدوء، ولم يظهر أثره على القوم فحسب، بل انتشر في جميع أرجاء الأرض حتى كادت أن تُعشب وتثمر بعد قحطها وجدبها، وبذلك يستطيع أن يتجاوز الغايات، ويتخطى العادات المألوفة التي اعتاد الناس عليها، حتى أصابهم الذهول والتعجب من فعاله التي يمكن إنكارها لغرابتها لولا رؤيتها، من ثم يستحق أن يرقى إلى هذه المنزلة

---

٢٦ **أشكل**: التبس، **الأريحية**: الارتياح للندى، **زياد**: هو زياد بن معاوية وهو النابغة الذبياني الشاعر، وسمي النابغة بقوله "فقد نبغت لنا منهم شئون".

المتفـردة والمتميـزة مـن الأخـلاق الحميـدة، والصـفات العظيمـة التـي نَـدُر أن تجتمـع فـي شـخص؛ لينفـرد بالمقولـة المشـهورة الجامعـة لتلـك الصـفات "أي الرجـال المهـذب"، كمـا لـم تعدل هذه القصائد حقه، فهو لم يترك فضلًا لغيره، ولا صفة جليلة إلا واتسم بها.

وفي موضع آخر يمدح الشاعر أبا نهشل بن حُميد الطائي، فيقول[٢٧]: [البسيط]

إنِّي تـرَكْتُ الصِّبَا عَمْدًا ولم أَكَدِ		من غيرِ شَيْبٍ ولا عَذْلٍ ولا فَنَدِ
إلـى أَبِـي نَـهْشَـلٍ ظَـلَّتْ ركَائـبُـنـا		يَخْـدِينَ من بـلَـدٍ نـــاءٍ إلـى بَلَـدِ
إلى فتًى مُشْرِقِ الأَخلاقِ لـو سُبِكَتْ		أَخلاقُهُ من شُعَاعِ الشَّمْسِ لم تَـزِدِ
يُمْضِي المنـَايَا دِرَاكـًا ثـم يُتْـبِعُها		بِيضَ العَطَايا، ولم يُوعِـدْ ولم يَعِدِ
ولابـسٍ ظِـلَّ مــالٍ لـلـنـَّدى أبـدًا		فـيـه وقَـائـعُ طـيئ في بَـنِي أَسَـدِ
بـنـُو حُـمَيْدٍ أُنـاسٌ في سُيُوفِـهِـم		عِـزُّ الـذَّليل وحَتْفُ الـفـارسِ النَّجُـدِ
لـهُـمْ عَـزائـمُ رأيٍ لـو رَميتَ بها		عِنْـدَ الهِيَـاجِ نُجُـومَ الـليل لـم تـقِـدِ
تَـحَـيـَّرَ الجُـودُ والإحـسانُ بـيْـنهُمُ		فمـا يَجُــوزهُـمُ جـُـودٌ إلى أَحَــدِ
لــَـوْلا فـَعَـالُـهُـمُ والله كـَرَّمَــهُ		لَـمَــاتَ ذِكـْرُ المعـالـي آخِـرَ الأَبـدِ
بِيضُ الوجُوهِ مع الأَخلاقِ وَجْدُهُمُ		بــالبـأْسِ والجُـودِ وَجْـدُ الأُمِّ بالـوَلـَـدِ
محمَّـدَ بـن حُمَـيدٍ أيُّ مَـكْرُمــةٍ		لم تَـحْـوِها بِـيَـدٍ بـيضـاءَ بَـعْـدَ يَـدِ
شـمـائلٌ من حُـمَيْدٍ فـيـك بَيِّـنَـةٌ		لها نسيـمُ ريــاضِ الحَـــزْنِ والجَلَـدِ
تَبَـسُّمٌ وقُطُـوبٌ في نَــدًى ووَغًـي		كالبَرْق والرَّعد وَسْطَ العارضِ البَرِدِ
أَعْطَيْتَ حتى تركْتَ الرِّيحَ حاسِرةً		وَجُـدْتَ كـأَنَّ الغيـْثَ لـم يَجُــدِ![٢٨]

يتضـح مـن هـذه الأبيـات المكانـة الرفيعـة التـي وُضـع فيهـا الممـدوح أبـو نهشـل الطـائي، حيـث نجـد الشـاعر يصـفه بأسـمى الصـفات، وأجـلّ الأخـلاق موضـحًا إياهـا، فهـو

[٢٧] البحتري، ديوانه، م١، صـ ٥٧٣.

[٢٨] **العذل**: اللوم، **الفند**: الكذب ـ العجز، **النجد**: الشجاع الماضي فيما يعجز غيره، **لم تقد**: لم تضئ، **الجلد**: الأرض الصلبة المستوية، **الحزن**: ما غلظ من الأرض، **العارض**: السحاب المعترض في الأفق، **البرد**: الذي يمطر البرد.

أبو نهشل الذي بعُد بحسبه ونسبه عن الناس، فضلا عن أخلاقه العالية التي ذهبت به من بلد إلى بلد آخر، وهي التي إذا أذيبت مع شعاع الشمس، وأعيد ترصيفها فلم تزد بعد شيئًا، فقد ملأ الدنيا بعطاياه التي إذا وعد بها وفّى، حيث ألبسته لباس الندى الذي لم يزحزحه عن جسده إلا الموت، وهذه من أشهر شيمات بني طيء.

ويستمر الشاعر في مبالغاته، فهم قوم جُعلت سيوفهم مذلةً ومهانة للضعيف، وهلاكًا وحتفًا للفارس الشجاع القوي الذي لا يغلبه شيئًا قد يعجز غيره فيه، كما لهم آراء ثابتة صارمة تكشف عند الحرب الشعواء، حيث يجمعهم رأي واحد قد عُقدت النية عليه، فإذا رميت به نجوم الليل لم تضيء؛ وذلك لقوته وشدة صرامته.

أما عن جودهم وكرمهم، فقد تحيّر من فرط عطائهم، ولا يمكن أن يرقى أحد إلى هذا الحد أو المقام الذي وصل إليه هؤلاء القوم المتسمون بالمعالي، والفعال الكريمة، التي لولاهم لنفد ذكرها، حيث إنهم يعشقون هذه الشيمات ويهيمون بها، كما تهيم الأم بولدها، فأيدي هذا الممدوح قد احتوت كل المكرمات التي لا يجوز لغيره أن يحتويها، فهذه الخصال حجة قوية على رفعة أخلاقه، فهي بمثابة النسيم الذي تفوح رائحته كلما مرت الرياح على الأراضي الصلبة المستوية وكذلك الغليظة. فضلًا عن أنه مبتسم منير الوجه في وقت الندى والهدوء كالبرق المضيء وسط السحاب، وفي المقابل قطوب عابس الوجه وقت الوغى كالرعد المفزع للبشر، كما اتسم بأنه معط كثير العطاء إذا قورن بالغيث الذي لم يعطِ.

من ثم نلاحظ من هذه الأبيات مدى تفوق الشاعر، وتميزه الأدبي الذي تضاعف في حديثه عن هذا الممدوح الذي ينتمي إلى قبيلة طيئ (وهي قبيلة الشاعر)، وكأنه يحاول أن يكشف عن صفاتها الجليلة التي عرفت واشتهرت بها؛ لكونه منتميًا إليها.

وفي إطار مدح الشاعر لأحمد بن عبد العزيز، يقول[٢٩]: [الخفيف]

أَقْصِرَا قد أَطَلْتُما تَفْنِيدي ! ومن الجَهْلِ لَوْمُ غَيْرِ سَدِيدِ
مَلِكٌ راحَتاهُ أَحْنَى على العا فِينَ مِن والِدٍ وَمِن مَوْلُودِ
أَبْدَعَتْ راحَتاهُ في الجُودِ ما لَمْ يَكُ لولا نَدَاهُ بالمَوْجُودِ
لو سَعَى قَبلَ رِفْدِهِ رِفْدُ كَفٍّ لَسَعَى رِفْدُهُ إلى المَرْفُودِ
بَسْطَةٌ فاتَتِ النُّجومَ علُوًّا واغْتَدَتْ بَعْدَ فَوْتِها في الصُّعودِ
تَعْجزُ الرِّيحُ عن بُلُوغِ مَدَاها فَهيَ حَسْرَى في شَأْوِها المَمْدُودِ
لو تُلاقَي به الأُسُودُ لَأَعْطَتْ طاعةَ المُسْتَكِين غُلْبُ الأُسُودِ
والعُلَا من فَعَالِهِ في اجتماعٍ واللُّهَى من يَدَيْهِ في تَبديدِ
فكأَنَّ اللُّهَى اجْتَرَمْنَ إليهِ فَهيَ مَطْلُوبةٌ بتِلك الحُقُودِ
ليسَ حَوْكُ القَرِيضِ بالِغَ ما فِيـ ـكَ بِوَصْفٍ فَيُكْتَفَي بِالقَصِيدِ
غيرَ أنَّ القَرِيضَ أجْمَعُ شَيءٍ لمُقيمٍ من العُلَا وشَرُودِ[٣٠]

يمدح الشاعر في هذه الأبيات ــ كعادته ــ الصفات الحميدة التي اتسم بها الممدوح، وأهمها صفة الجود التي تجاوزت لديه كل معاني العطاء والسخاء، فقد اتسمت راحتاه بالحُنُو والعطف على كل العافين المحتاجين، حيث اقتصر عليه دون غيره، ولولا هذا الممدوح ما وُجد هذا العطاء، فإذا سعى كف إلى العطاء قبل عطائه لأسرع عطاؤه إلى هذا المُعطَى، إذ تجاوزت بسطته النجوم في علوها وسموها، بل واخترقتها في الصعود.

يواصل الشاعر مبالغاته التعويضية التي تتمثل في أن الرياح قد عجزت وندمت على محاولة مضاهاتها لهذا الممدوح فيما يأتي به أو يعطيه لغيره، فضلًا عن أن قوته وشجاعته التي فاقت قوة الأسود فإذا تلاقت به قدمت له فروض الطاعة والعفو عنهم.

---

[٢٩] البحتري، ديوانه، م٢، صـ ٨٠٥. وتوجد هذه الظاهرة أيضا في مواضع أخرى، انظر م١، ص (٢٣٦، ٥٤٧، ٥٦٦، ٦٢٤)، م٢، ص (٦٧٠).
[٣٠] **الرفد**: العطاء ــ المعونة، **المرفود**: المعان، **اللهى**: أفضل العطايا وأجزلها، **الحوك**: النسج ونسج القصيدة أي نظمها.

مـن ثـم فقـد تجمعـت كـل الخصـال الحميـدة فـي الممـدوح؛ ليصـل إلـى مكانـة عاليـة مـن السـخاء الجـزل، والعطـاء الكثيـر، والقـوة الفائقـة، وغيـر هـذه الصـفات، حيـث إن هـذه الصـفات والأفعـال قـد اجترمـت إليـه؛ وذلـك لكثرتهـا، لهـذا لـم يكـن الشـعر كفـيلًا لوصـف سـمات الممـدوح وخصـاله العديـدة، بـل يمكـن أن يكـون أجمـع شـيء لشـخص مقـيم مـن العـلا منزلةً أومكانةً له.

ـ نتائج البحث:

بنـاء علـى مـا سـبق، اسـتطاع الشـاعر أن يوظـف "المبالغـة التعويضـية" التـي وصـلت إلـى حـد الغلـو أحيانًـا ــ وذلـك فـي البيتـين الخـامس والسـادس ــ موضـحًا مـن خلالهـا أسـمى الخصـال التـي اتصـف بهـا الممـدوح؛ ليبـرز مكانتـه ومنزلتـه التـي يسـتحقها مـن خـلال شـعره، فهـو الوسـيلة الوحيـدة التـي يمكـن بهـا أن يوضـح منزلـة الممـدوح العليـا، كمـا يلمـح أيضًـا لمـدى تميـزه وتفوقـه الأدبـي علـى أقرانـه، وهـي الرغبـة التـي حـاولا هـو وأسـتاذه أن يثبتاهـا مـن خـلال قصـائدهما، وبخاصـة فـي فـن المـدح ــ كمـا سـبق ــ فكلاهمـا حـاول أن يرسـم صـورة مثاليـة لممدوحـه، ويبـرز أسـمى صـفاته، وأجلّهـا، وكأنهمـا يعـددان خصـالهما الحميـدة، وصـفاتهما الجليلـة، وفـي ذلـك رغبـةً منهمـا فـي (اسـتعراض فضـائل الممـدوح وفضـائلهما)، إذ يضـعان صـورة لهمـا فـي هـذا الممـدوح، فيرفعانـه إلـى أعلـى المراتـب، ويسـموان بـه إلـى السـماء، فإنمـا يثنيـان علـى الممـدوح بمـا يريدانـه لأنفسـهما، وبـذلك يسـتمدان منـه هـذه الصـورة الحسـنة، فيترفعـان عـن القـوم بهـذه السـمات، كمـا يسـتمدان منـه هـذا التميـز والترفـع عـن الآخـرين، حيـث يعطيانـه مكانـة تجعلـه أعلـى مـن البشـر جميعًـا، "فالشـاعر العربـي كـان يمـدح لأنـه يريـد أن يعـيش، وغريـزة حـب البقـاء تدفعـه دفعًـا إلـى أن يغلـو وأن يتزيـد، وأن يحـاول الفـوق ليشـبع غـرور الممـدوح فيجـزل لـه العطـاء"[٣١]، وكمـا يشـبع غـروره؛ لكونـه رغبـة فـي التفـوق والتميـز الأدبـي، "فعقـدة التفـوق التـي تكونـت فـي

[٣١] محمد عطا، أبو تمام (دراسة فنية نفسية)، صـ ١٢٠.

أبـي تمـام، وأرادتـه علـى ألا يـرى فـي الوجـود إلا نفسـه وفنـه"[٣٢]، وقـد ظهـر ذلـك فـي أشـعاره، إذ فـرض زعامتـه فرضًـا يصـعب علـى غيـره الإتيـان بمثلهـا. وقـد حـاول تلميـذه أن يسـتمد هـذه الزعامـة مـن أسـتاذه، ولا عجـب فـي ذلـك، "فلمـا قُتـل المتوكـل قـال أبـو العنـبس الصيمري:

يا وحشة الدنيا على جعفر على الهمام الملـك الأزهـر

على قتيـل من بني هاشـم بين سـريـر الملـك والمنـبـر

والله رب البيت والمشـعـر والله أن لـــو قـــتـل البحـتـري

لـثـار بـــالـشـام لـــه ثـائـر في ألف نغل من بني عض خرى

يـقـدمـهـم كـل أخـي ذلـــة عـلـــى حـمـار دابـر أعـــور

فشـاعت الأبيـات حتـى بلغـت البحتـري، فضـحك، ثـم قـال: "هـذا الأحمـق يـرى أنِّـي أُجِيبُه على مثل هذا، فلو عاش امرؤ القيس، فقال: من كان يجيبه؟!"[٣٣].

مـن ثـم يتضـح مـن هـذا الخبـر أن البحتـري كـان قـوي الاعتقـاد بتفـرده وتميـزه بـل بتفوقـه الأدبـي، فقد ترفّـع عـن الـرد علـى أبـي العنـبس الصـيمري، واصـفًا إيـاه بـالأحمق الـذي ينتظـر شـيئًا يصـعب تحقيقـه، فـالبحتري كـان شـديد الزهـو بشـاعريته فضـلًا عـن إعجابـه بنفسـه، وقـد اسـتمد ذلـك مـن أسـتاذه ليحـتلا معًـا مكانـة عظيمـة فـي العصـر العباسـي، كمـا احتلها امرؤ القيس في العصر الجاهلي، وهو ما أشار إليه البحتري.

---

[٣٢] السابق، صـ ٥٨.

[٣٣] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، صـ ٤٢.

ـ المصادر والمراجع:

أولًا:المصادر:

١ــ المستوفى من شعر أبي تمام (ديوان حبيب بن أوس الطائي)، صنعة د/محمد مصطفى أبو شوارب، مؤسسة البابطين، الكويت، ٢٠١٤م.

٢ـ البحتري، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، ط٣، د. ت.

ثانيًا : المراجع:

١ـ الأصفهاني، الأغاني، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م.

٢ــ ألفريد أدلر، معنى الحياة، ترجمة عادل نجيب بشري، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٥م.

٣ـ حامد عبد السلام زهران (د)، الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب، ط٤، ٢٠٠٥م.

٤ــ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، ١٩٩٧م.

٥ــ الصولي، أخبار أبي تمام، تحقيق خليل محمود عساكر، تقديم د/ أحمد أمين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١٩٨٠،٣م.

٦ـ طه حسين(د)، حافظ وشوقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

٧ـ طه حسين(د)، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي، د.ط ، ٢٠١٢م.

٧ــ محمد عطا، الشاعر أبو تمام (دراسة فنية نفسية)، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ط، د.ت.

٨ـ محمود عواد (د)، معجم الطب النفسي والعقلي، دار أسامة، عمان ـ الأردن، د.ط،٢٠١١م.

ـ المواقع الإلكترونية:

http://www.aram-grp.com/index.php?d=221&id=28 ، آخر زيارة ٢٠١٧/١٠/١٧م.

"ملخص البحث"

يعنى هذا البحث بدراسة المعاني النفسية التي ظهرت عند أبي تمام والبحتري في إطار خروج الأول عن عمود الشعر المتبع، وتمسك الآخر به، وهو ما تفصح عنه نصوصهما الشعرية التي وظف فيها فن المبالغة عن بعض المشاعر السلبية التي كانت نتيجة حتمية (لشعور الشاعرين بعقدة النقص أوالدونية)، والمترتب عليها لجوء الشخص إلى آلية معينة للدفاع عن نفسه المنطوية على إحساس الإهانة والذل، وأنه أقل ممن حوله في بعض الأمور، لتبقى هذه العقدة مترسخة في سلوكية الفرد، وتصاحبه لتظهر نتائجها التعويضية المقابلة لها، والمتمثلة في بذل مجهودات خاصة لإخفاء مشاعر النقص، من محاولته إثبات تفوقه، أو تميزه وغيرها من المظاهر التعويضية التي تحقق له شعور الاكتفاء الذاتي.

"Summary"

This research is concerned with the study of the psychological meanings that appeared in Abu Tammam and al-Bahtari in the framework of the first exit from the pillar of poetry followed, and the adherence of the other to it, which is revealed by the poetic texts in which the art of exaggerating some of the negative feelings that were inevitable result, And the consequent recourse to the person to a mechanism to defend itself, which includes a sense of humiliation and humiliation, and that less than those around him in some things, to remain this node rooted in the behavior of the individual, and accompanied by the corresponding compensatory results, which is to make special efforts to hide the feelings of deficiency, Of his attempt to prove Above it, or distinguish it and other compensatory aspects that bring him a sense of self.

كلمات مفتاحية للبحث:

ـ المبالغة	**Exaggeration**
ـ المدح	**Praise**
ـ التميز	**Excellence**
ـ عقدة النقص	**inferiority complex**
ـ عمود الشعر	**Column of poet**